مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

المصدر: الاهـــــرام

التاريخ : ١٩٧٥/١١/٢٣

حديث الأحد

خطاب السادات ..... والمنـــابر !

بقلم
احمد بهاء الدين

في خطابه الاخير ، القى الرئيس السادات بعصاه فابتلعت ثعابين كثيرة كانت تسعى على الارض .. والرئيس السادات في خطابه لم يرفض فكرة المنابر ، على الاقل لانه هـو الـذى قدمهـا ! .. ثـم ان الرئيس السادات لديه اقتنـاع عميـق بالعمل من اجل مستقبل اكثر ديمقراطية لمصر . لانه يرى في هذا الضمان النهائى للاستقرار الجديد في البلاد ! .. ولكن ما فعله الرئيس في خطابه هو انه وضع قضية الديمقراطية في اطارها التاريخي الصحيح .. ثم طالب بمناقشة شـعبية واسعة من هذا المنطلق ..

ولا يوجد عاقل في الراى العام المصرى يرفض مبدأ الديمقراطية ! بل ولا حتى مبدأ الوصول يوما الى أحزاب جماهيرية حقيقية تعبر عن مصالح وآراء الشـعب المختلفة بشتى تياراتها ...

ولكن الذى حدث هو ان وسائل الاعلام طرحت القضية على الراى العام المصرى طرحا خاطئـا هو الذى ادى الى هـذه البلبلة وادى الى كثير من المخاوف ! ..

لقد بدا ان الحوار قد استقطب بين اتجاهين ..

اتجاه قدم الديمقراطية للنـاس على أساس أنها رفض كامل لكل ماحدث خلال عشرين سنة من الثورة ! ونقض كامل لكل ما أدخلته الثورة على حياة هذا البلد .

العشرون سنة كانت ظلاما في ظلام . ولم يكن فيها الا الحبس والحراسات والضرب والتعذيب ! ومشروعاتها كلها كانت فاشلة من السد العالى الى القطاع العام الى مئات المصانع ! ولم تسفر في نهايتها الا عن الجوع والخراب والتأخر وأزمات المواصلات والاسكان والتليفونات . كل مشكلة في مصر سببها العشرون سـنة الماضية ، اذن فلنمسحها بجرة قلم واحدة ،

ولنعد لنبدأ من حيث انتهت الايام السعيدة أيام حكم الانجليز والقصر والاحزاب القديمة • وهذه هى الديمقراطية المطلوبة والحرية المنشودة !

وكان لابد أن يواجه هذا التيار الكاسح تيار آخر مضاد يقول العكس تماما . وهو أن كل ماحدث خلال العشرين عاما كان عملا عظيما ومجيدا • وأنه لا حاجة لتعديل أى شىء • لان كل تعديل انحراف ورجوع الى الوراء ! •••

ومن يتخلى العناوين ، ويتأمل الفحوى الحقيقى للجدل الدائر ، سوف يجد أنه لا يدور على المنابر كفكرة ولا حتى الاحزاب كمبدأ أو الحرية أو الديمقراطية كعناوين ، ولكنه جدل يدور حول هذه القضية ، حول هذه المواجهة • تلك هى الحقيقة الصريحة ! •••

●

ولا شك أن كلا الاتجاهين خاطىء ، لانهما ينطرفان الى حدود بعيدة • واقل ما يقال انها اتجاهات عاطفية ، « غير عقلانية » على الاطلاق • بمعنى أنهما لا تضع مشاكل البلد فى اطارها الصحيح وبالتالى تتجه فى محاولة حلها الى أى اتجاه صحيح ! •••

●

ولقد وضع الرئيس السادات القضية فى اطارها الصحيح بأقل وأبسط عدد من الكلمات حين قال ان الديمقراطية لهما جانبان ، جانب سياسى ، وجانب اجتماعى •• وانه بغيرهما معا لا تقوم حرية ولا تقوم ديمقراطية ! فالديمقراطية ليست تلك الغابة الخالية من القواعد والقيود التى يأكل القوى فيها الضعيف ، وهى أيضا ليست قيودا خانقة لافتعال مساواة تقتل تنافس الافراد وسعيهم الى التقدم وحريتهم ومشاركتهم فى صنع القرارات التى تمس حياتهم •

●

والرد على القائلين بتجميد كل ما حدث خلال العشرين سنة الماضية بسيط • فالجمود ضد التطور • وضد الاستفادة من الاخطاء • ولا يوجد مجتمع تحت أى نظام كان يمضى عشرين سنة كاملة فى تجربة دون خطأ واحد • بل ان الجمود ضد الثورية ذاتها • ان الثورية ليست هى العنف • انها فى الدرجة الاولى مجاراة التطور واللحاق به •

ولنأخذ الانفتاح الاقتصادى كأبرز مثل فى هذا المجال • قبل الثورة حاولت مصر — الملكية — عبثا جذب المال الاجنبى بشتى القوانين ولكنها فشلت • وفى أول الثورة حاولت مصر تشجيع القطاع الخاص بكل الوسائل ولكنه عجز عن القيام بدور هام فى التصنيع • وحتى بعد ١٩٦٧ صدرت قوانين لتشجيع المال العربى فلم تنجح •

ذلك أن الظروف الموضوعية كانت مختلفة الى حد كبير • كانت أوروبا مثلا تمتص كل المال المتاح للتنمية • ولم يكن هناك المال العربى بالحجم الذى نعرفه الان • كان بالكاد يكفى لتنمية بلاده وأصحابه • الان وقد تغير الحال وصار العالم العربى الذى ناضلنا كل هذا النضال لتحريره ورفع شأنه فى العالم صار هذا العالم العربى هو أكبر مصدر للمال فى العالم • فهل يعقل الا أن نفتح له الابواب ، ونسن له القوانين ، ونمنحه التسهيلات ، وقد صارت قضية التنمية هى القضية الاولى لكل شعب فى العالم ؟ •••

ثم ان الوطن وقد تحول من بلد مستعمر كل مرافقه الحيوية فى يد الاجانب منذ ديون اسماعيل واحتلال الانجليز ، الى وطن يملك معظم مرافقه الحيوية من قناة السويس الى الصناعات

الكبرى ، ومع وجود قطاع عام وطنى يضم مايقرب من مليون مدير وفنى وعامل هذا الوطن صار أقدر على استيعاب المال الاجنبى دون الخضوع له ، خصوصا وقد انحسر الاستعمار ، وتنوعت العلاقات حتى بين الدول المتعادية عقائديا وسياسيا ، كروسيا وأمريكا واليابان وغيرها ...

كل هذه نماذج على متغيرات لا بد أن نأخذها فى حسابنا .

●

على أن الاتجاه الاعلى صوتا والاكثر ضجة ليس هو القائل بالتجميد ، بل القائل بالارتداد عشرين سنة . لانها عشرون سنة خربت كل شىء . وهذا بحث طويل . يحتاج من كل وطنى مخلص وموضوعى الى ردود طويلة مفصلة .

ولكن ... ما أيسر نسف هذه الدعوى بكلمات مبدئية قليلة ، لانه ليس جوهر هذا الحديث ...

ان أبسط قواعد النظر الموضوعى البرىء أن نفرق بين مشاكل « أوجدتها » الثورة ومشاكل كان لابد منها . بل ولولا الكثير من اجراءات الثورة لتفاقمت بأكثر مما هى عليه الان

لقد زاد عدد السكان — مثلا — الى الضعف تماما خلال الثورة . وحدث هذا فى معظم البلاد وأوجد بالتالى نفس المشاكل على شكل اكثر مضاعفة

وفى نفس الوقت لم تكن مصر ذلك البلد الكامل فى منشآته الاساسية قبل الثورة حتى يتفرغ لمسايرة زيادة السكان . كانت بلدا للاقلية . المساكن اللائقة للاقلية ، التعليم للاقلية ، السفر للخارج للاقلية ، المنح للاقلية ، السيارات الخاصة للاقلية .

وحين عملت الثورة من اجل مزيد من العدالة الاجتماعية ، لم يزد عدد السكان فقط ، بل زادت تطلعاتهم ايضا . وهذه ميزة للثورة ، وان كانت ميزة من طبيعتها أن تخلق مشاكل جديدة .. مشاكل النمو والتطور لجماهير أوسع .

ماسمى فى العالم كله باسم « ثورة التطلعات الجديدة » . شملنا حين أدخلتنا الثورة عصرا جديدا . صار الفرد يأكل أكثر ويلبس أكثر ويتحرك أكثر . وصار الراغبون فى اقتناء السيارة والثلاجة أكثر وأكثر . هل هذا تقدم أم تأخر ؟ . الانتاج لا يلبى الزيادة فى الطلب . ولكن هل هذا مظهر تقدم أم مظهر افتقار ...

كم فئة أو الفا افتقروا وكم مليونا زادت مواردهم وتحسنت حياتهم ؟

سؤال يجب أن يجاب عليه قبل أن يقال ان مصر افتقرت دون غيرها ! ومن غيرها ؟

دول البترول التى تفجرت فيها الثروة فجأة بلا حساب ؟

انها حالات لا قياس عليها فى العالم كله .. العربى وغير العربى !

ولكن انظروا الى دول العالم الثالث كله . بكل نظمها . ولا نريد أن نهاجم اليوم دولا نريدها صديقة لنا . ولكن أين كان وما يزال الاعدام بالمئات فى نظم لا ثورية ولا حاجة ؟ ... وأين ارتفع مستوى المعيشة ؟ ... وأين زاد عدد المتعلمين ، وعدد الطبقة العاملة ، وعدد المصانع، ومعدل الانتاج .

ان مصر — فى ساحة الدول المشابهة لظروفها — ضربت أمثلة فى التقدم لم يسبقها اليها غيرها . بل صارت من أكثر هذه الدول فى قدرتها الصناعية ، وفى مشروعاتها الاساسية ، وفى رصيدها البشرى الفنى الذى تصدره للعالم كله !

ان العالم العربى كله يعيش على الخبرة المصرية أكثر مما يعيش على أى خبرة أخرجها أى بلد آخر أو أى نظام آخر . والخبرة البشرية هى أيضا مال واستثمار ونتيجة جهد وعمل وثمرة اتساع قاعدة التعليم .

ولنقارن فقط بين نسبة بعثاتنا التى تعلمت فى الخارج قبل الثورة ، ونسبتها بعدها ، وكله كان من كفاءة الشعب وأيضا من ماله واستثماراته !

والامثلة .. لا آخر لها ...

●

أما أزمات الطعام والتليفون والمواصلات والاسكان ، فأولا هناك السبب الذى قلته منذ قليل وهو اتساع قاعدة الرخاء وقاعدة المطالبين بهذا . وثانيا أنها كلها مشاكل عالمية فيما عدا الدول المتقدمة منذ زمان بعيد ... لان هناك ثورة عالمية ربما كانت هى أكبر الثورات وهى كما قلت التى سماها « يوجين بلاك » مدير البنك الدولى سابقا « ثورة الآمال الكبيرة » . ثورة الديمقراطية الاجتماعية ثورة المساواة التى زادت الطلب العالمى اضعافا فى عالم لم يكن مستعدا لهذا من قبل . أزمة اسكان فى العالم كله . ازمة سكر فى أوروبا . أزمة قمح فى معظم العالم ... الى آخره .

وهو موضوع يجب أن نتحدث فيه طويلا ، وفى مناسبات أخرى ، لانه قضية جوهرية فيما يواجهنا الان من مشكلات ...

●

هذا الجدل ، الذى أشرت اليه ، هو الذى يحتاج الى حسم ... أولا وقبل كل شىء ...

ذلك أن الاغلبية الساحقة من الذين يتخوفون من المنابر .. أو من الاحزاب ... أو من شعار الديمقراطية ... يتخوفون منه لانه يقدم لهم أحيانا فى صورة الرجوع الى الماضى ... الرجوع الى رخاء الاقلية وحكم الاقلية ... الرجوع الى مجتمع النصف فى المائة ... وفى رأيى أن هؤلاء المتخوفين مخطئون ... مخطئون لان هذا الرجوع مستحيل... انه ضد الزمن .. ضد تطور العالم .. ضد تطلعات الشعب .

ومكاسب الشعب فى رأيى تقويها الديمقراطية السليمة ، وليس العكس . والديمقراطية السليمة هى التى تعطى قوى الشعب أوزانها السليمة ، وليس العكس .

وحين أشار الرئيس الى انه كان يتوقع من المنابر أن لا تكرر نفسها ، ولا تعيد القديم ، بل ان تفكر فى المشاكل الجديدة .. التى هى مشاكل النمو والتقدم لا مشاكل التخلف والجمود .. كان فى تقديرى يشير الى هذا الفهم الذى ضربت بعض الامثلة عليه ...

وساعتها ، سوف لا يتقـدم بمنبر الا من لـديه الحـلول لا الكلمات ... والحلول الجديدة على ضوء ما نحن فيه لا الحلول التى انتهى اوانها ... والمعارك الجديدة التى يخوضها العالم لا المعارك التى حسمت منذ وقت طويل ...

وساعتها ، قد نبدا حقا السير نحو ديمقراطية حقيقية جديدة .